

الهوية اللغوية والثقافية العربية في اليز الأروبي: بين التفاعل والاختزال

بقلم: البروفيسور سليمان ملوكي

قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية

كلية الحقوق، جامعة بوضياف المسيلة

ملخص المداخلة:

إذا كانت اللغة وسيلة اتصال بشرية على المستويين الفردي والجماعي، فإنه يبقى لها بالأساس وظائفها الرئيسية الثلاث: التفكير، التعبير والتفاهم، وكل من هذه في تغير دائم، فكلما اغتنى إناء التفكير كان مختلفا مع غيره من حيث المعارف والخبرات.

ولما كانت الشعوب والأمم تتميز ببلغاتها وبثقافتها وبفكرها وبحضارتها تعددت وجهات نظرها واتجاهاتها وبالتالي تعددت مصالحها وأهدافها، وكيفية التّواصل.

إن وجود الجالية العربية في المهجر بفعل أسباب تاريخية معلومة كان لهويتها

الثقافية واللغوية مصيرا محتوما داخل المجتمع الغربي عموما والمجتمع الفرنسي خصوصا، إما بالتفاعل والتجانس وإما بالصراع والاختزال.

يأتي هذا المقال ليحلّل مكانة اللغة العربية وثقافتها في المجتمع الفرنسي بين التأثير الإيجابي والتفاعل، وبين الاختزال والصراع، فكيف تتحقق هذه الهوية في ظلّ المعطيات: الاجتماعية، السياسية والثقافية الرّاهنة؟

الكلمات المفتاحية: الهوية اللغوية والثقافية العربية، الجالية العربية، التفكير، التعبير، التفاهم، التفاعل والتجانس، المعطيات الاجتماعية، المجتمع الفرنسي، التأثير الإيجابي.

1/ أهمية تعليم وتعلم اللغة

العربية:

لما كانت اللغة أساس التواصل بين الأفراد والمجتمعات بات تعلّمها حاجة ملحة ومطلبا أساسيا في الحياة المعاصرة التي تشهد ثورة معلوماتية كبرى نتيجة التّقدم في تقنية الاتّصالات التي ساهمت في إذابة الحواجز بين الشعوب، والثقافات، وجعلت من العالم قريةً كونية صغيرة يجاور بعضها البعض، ويستفيد كلّ منها من الآخر. فتعلّم اللغة - أيّا كانت - يساعد على الفهم والاستيعاب، كما يساهم في نقل العلوم والمعارف والتّجارب والثقافات وترجمتها⁽¹⁾.

لدى الأطفال قابلية قويّة لتعلّم اللّغات واستيعابها في سنّ مبكرة جدّا. وهي قابلية لا بدّ من استغلالها وخاصّة في إثراء المعرفة اللّغوية لدى الطفل وتحديد لغته الأمّ، فيتعين على المربّي أن يحرص على تطوير مهارات اللّغة العربية عند الطّفل، مما يساعده على تطوير حس الانتماء الثّقافي والوطني. كما ينبغي تشجيع الطّفل على استخدام لغته الأمّ

استخداما صحيحا.

وفي حالة اللّغة العربية، على المربّي أن يحرص على تنمية الاعتزاز باللّغة الفصيحة، واستخدامها والتمكّن منها، حتى لا تطغى اللهجات العاميّة أو اللّغات الأجنبية على الفصيحة، وخاصّة أنّ لوسائل الإعلام التأثير الأكبر في اكتساب اللّغات الأخرى نتيجة الاتصال التّقني والثّقافي. إضافة إلى ذلك، على المربّي أن يشجّع الطّفل على نشر لغته، وتعريف الآخرين بها، دونما الحاجة إلى تعلم لغة أخرى «بديلة» للغته الأم لنقل فكره وثقافته⁽²⁾.

إن من أبرز ما يدعّم بناء شخصية الفرد التزامه بمقوّمات ثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه، وفي مجتمعنا العربيّ المعاصر نجد أنّ لكلّ من التّربية الإسلامية واللّغة العربية أهمية ودور في بناء الشخصية العربية والإسلامية، وتشكيلها وفق مبادئ الدين الإسلامي ومعطياته الحضارية وتأصيل القيم العربية والإسلامية في نفوس أبناء الدّول العربية، واللّغة العربية -علاوة على ذلك- عنوان الأمة العربية ولهذا

الإسلامية، ونحن نطالب أيضاً بإجراء البحوث العلمية التي تتناول مظاهر الضعف فيهما، ودراسة أسبابه وسبل علاجه⁽⁵⁾.

2/ مفهوم الهوية اللغوية والثقافية العربية:

بات مفهوم الهوية «اللغوية والثقافية» يحتلّ اليوم مساحةً واسعة من التفكير والخطاب، وبخاصة منذ أن أثارت العولمة وبدايات ما بعد الحداثة تساؤلات عديدة، في مقدمتها إشكالية الثقافة والهوية على نطاق محليّ وعالميّ. لقد أخذ الحديث عنها يقترن بصورة متلازمة مع أطروحات التعددية والديمقراطية وصراع الحضارات حيث أصبح الارتباب من العولمة هاجساً مركباً من اندماج عالمي لا يراعي المساواة بين البشر ويعمل على احتواء الآخر، وفي ذات الوقت يبحث على إساءة فهم معنى الاختلاف بين الثقافات، الذي يؤدي إلى تفكيك بنية العلاقات الاجتماعية وإمكانية تزايد حدة الصراعات الحضارية⁽⁶⁾.

والهوية هي السمة الجوهرية العامة لأيّ ثقافة من الثقافات، لكن هذه

تزداد أهميتها عن سائر المواد الدراسية المختلفة، فهي ليست مادة دراسية فحسب، وإنما هي مظهر من مظاهر وجود الأمة العربية وكيانها⁽³⁾.

وإذا كانت اللغة العربية تحتلّ المكانة والأهمية في البرامج التعليمية فإن التربية الإسلامية لا تقلّ عنها أهمية، ويرجع ذلك إلى ما تؤدّيه التربية الإسلامية من دور في إعداد الإنسان المسلم الصالح، وبما تشمله من قرآن وحديث وتوحيد وفقه وتفسير وثقافة إسلامية تهدف إلى تربية الطالب على الإسلام من جميع جوانبه النفسية والاجتماعية والروحية والسلوكية والعقلية. والتربية الإسلامية بهذا تتميز عن غيرها من المواد الدراسية بمحاولتها بناء الإنسان المتكامل المتوازن وتكوين شخصيته عقلياً ووجدانياً⁽⁴⁾.

ومما لا شك فيه أن تعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية يحفظ للمجتمع كيانه وثقافته الذاتية، لذلك أدرك التربويون هذه الحقيقة فأخذوا يعتنون باللغة العربية بحثاً ودرسا وتدرباً، وارتفعت صيحاتهم بضرورة العناية بكل من اللغة العربية والتربية

أو إطار إنساني أكبر يشاركه في منظومة من القيم والمشاعر والاتجاهات. والهوية بهذا المعنى حقيقة فردية نفسية ترتبط بالثقافة السائدة وبعملية التنشئة الاجتماعية.

وهناك، ثانياً التعبير السياسي الجمعي عن هذه الهوية في شكل تنظيمات وأحزاب وهيئات شعبية ذات طابع تطوعي واختياري. وهناك ثالثاً، حال تبلور وتجسد هذه الهوية في مؤسسات وأبنية وأشكال قانونية على يد الحكومات والأنظمة⁽⁹⁾.

3/ الفضاء الفرنسي ودوره في الحفاظ على الهوية اللغوية للمغتربين:

إن الاندماج أو التجانس الاجتماعي، هو انصهار الجماعات اجتماعياً وثقافياً، بحيث تتوحد الهوية الخاصة والهوية العامة في هوية مشتركة (جامعة) وسهولة الوصول إلى نوع من الإجماع حول القضايا الأساسية المتعلقة بمصير البلاد وعلاقته بالعالم الخارجي. ولأنه يندر أن تجد مجتمعا لا تتوافر فيه التعددية والتنوع القومي والديني

السمة ليست ثابتة أو جاهزة أو نهائية، كما يفهمها أو يعرفها البعض أحياناً، ولذلك لا يمكننا صياغة تعريف إجرائي لها، ولا توصيفها وتحديد خصائص ذاتية لها، لأنّها مشروع ثقافي مفتوح على المستقبل. ولكنّه مشروع معقد ومتشاك ومتغير من العناصر المرجعية المنتقاة المادية والاجتماعية والذاتية المتداخلة والمتفاعلة مع التاريخ والواقع الاجتماعي⁽⁷⁾.

والهوية ليست أحادية البنية وإنما تتشكل من عناصر متعددة: الديني، اللغوي والأخلاقي إضافة إلى الخبرات الذاتية والعلمية والوجدانية. والهوية ليست مجموع هذه العناصر، بقدر ما هي محصلة مركبة من عناصر تشكلت عبر الزمن وتمّ تلقيحها بالخبر والتجارب والتحدّيات، وردود الأفعال الفردية والجماعية عليها في إطار الشروط الذاتية والموضوعية السائدة⁽⁸⁾.

ينبغي التمييز بين ثلاثة مستويات مختلفة عند تحليل موضوع الهوية، فهناك الهوية على المستوى الفردي، أي شعور الشخص بالانتماء إلى جماعة

إلا في ظل عقد اجتماعي، يضمن استمرار وجودها، وهذا لا يكون إلا في ظل الاعتراف المتبادل والوعي بين هذه المكونات عبر وسائل سياسية وقانونية أولها المواطنة، وثانها تنظيم الحريات العامة. فالمواطنة بوصفها انتماء إلى الوطن (الدولة) لا تثمر إلا في جذر الديمقراطية، كون الديمقراطية تقوم على أساس الاعتراف بالإنسان بحقوقه وحرياته بغض النظر عن الانتماءات الاثنية، وعلى أساس حق المواطن بالتعبير والمشاركة في صنع القرار، وهي ذاتها مقومات المواطنة الفعالة والصالحة في ظل الانتماء إلى الوطن (الدولة) بحيث لا يمكن الفصل بين فكريتي المواطنة والديمقراطية، ففكرة المواطنة هي من إفرزات الفكر والنظام الديمقراطي، بمعنى أنها ولدت من رحم الثقافة الديمقراطية وتعرف بأن المواطن الإنسان هو مصدر السلطات السياسية جميعها، وبدون الديمقراطية لا تنمو فكرة المواطنة. غير أن هذا الطرح لا يفهم منه إلغاء الانتماء القومي أو الديني أو المذهبي، وإنكاره، بل هو الحد من هيمنة قومية أودين أو مذهب على الآخر، لأن الديمقراطية انفتاح على

والمذهبي والقبلي واللغوي، فإن محاولة إقصاء وعزل هذا التعدد والتنوع، يسهم في الانقسام والتجزئة وإلى إحداث خلل في نسيج المجتمع، فطبيعة المنظومة الاجتماعية وأشكال العلاقات القائمة بين عناصرها هي إنتاج كفي لمجمل الخصائص الذاتية والنوعية التي يتميز بها أفراد المجتمع في وضع تاريخي واجتماعي محدد، فمتى كانت خصائص الأفراد على درجات قريبة من التماثل كان ذلك داعياً إلى تشكيل معايير ضبط وانتظام ترتبط في خصائصها بخصائص الأفراد، مع وجود التنوع في المعايير الضابطة له أيضاً. وانسياقاً مع هذه الفرضية، فإن طبيعة التناقض ستؤدي إلى صراع، ومن هنا، فإن الانقسامات الاثنية الحادة والعميقة والعنيفة تؤدي إلى خلل في التجانس الاجتماعي. ولما كانت الديمقراطية تقبل بوجود المختلف، والسلوك الناتج من هذا القبول في حياة المجتمع وأعضائه، هو النظر إلى حرية الغير جماعة أو أفراداً بوصفها حقاً قائماً ومضمون الاستمرار⁽¹⁰⁾.

ولما كان أي مجتمع لا يخلو من تعددية وتنوع، فلا مكان لتعايش هذه المكونات

إن الاعتراف بحق الاختلاف اللغوي في المجتمع الديمقراطي هو الذي يجعل الحياة الإنسانية ممكنة داخل كل مجتمع مع تواجد الاختلاف فيه، وهو المجال الذي تتحقق فيه وبفضله صيغة جدلية بين وحدة المجتمع وتنوع مكوناته، وعليه فإن غياب التجانس الاجتماعي يقود إلى خلق سلسلة معوقات أمام تحقيق التوازن الاجتماعي، مما يفوت فرصة على المجتمع في بناء تجانس اجتماعي باتجاه الوحدة الوطنية وما يعنيه ذلك من ضياع للهوية⁽¹³⁾.

إن القيم الاجتماعية والأخلاقية والسلوكية التي تتمثل في التسامح والحوار وقبول «المختلف» والتعاون والتضامن الاجتماعي والمشاركة السياسية، تضمن روح التضامن والتعاون بين مختلف الجماعات والهيئات. فالأفراد محكومون بواقعهم الاجتماعي وإسهاماتهم فيه لذلك تعمل الانقسامات الاجتماعية ضد التصرف العقلاني وتحرمه من ممارسة حريته الفردية وتقف عقبة في وجه نمو القيم والمثل الديمقراطية، فالقيم التي تسيطر عليها ولأداء الأفراد ضمن المؤسسات التقليدية قويت مصادرها

العوامل البشرية في تواصلها الواقعي مع الآخرين، فلا معنى لوجود حقوق قانونية وسياسية إلا بتوافر الحد الأدنى من ضمانات ممارستها في الواقع⁽¹¹⁾.

إن الفضاء الفرنسي المتميز بالحرية والديمقراطية، هو تنظيم بشكل يضمن تبادل الاعتراف بحريات البعض مع البعض الآخر، ويجعل حرية كل واحد بنائه لأنها مندمجة ضمن حرية المجموع أو الجماعة، بمعنى أن الحريات في النظام الديمقراطي لا تذهب إلى النزعة الفردية، لأن الحريات في الأصل-طبيعية-فالفرد يتعدى الفردية لتحقيق القيم الإنسانية المشتركة ويهدف إلى التكامل داخل المجتمع، فالديمقراطية نظام يفسح المجال للإمكانيات كلها أمام كل شخص، وبذلك هي النظام الذي يخولنا بصفتنا أشخاصا الوسائل الناجعة كي نحيا في وعينا وسلوكنا والمثل العليا المشتركة، فالديمقراطية لا تلغي حرية الأفراد بل تمنحها بعدا اجتماعيا ولا تلغي الصراع والتنافس بين الذوات الفردية، بل تضيف عليها الصفة العقلانية والأخلاقية (الفائدة العامة) التي تجعلها مرنة وفعالة⁽¹²⁾.

- أظهرت بعض الدراسات بأن العوامل الأساسية والحاسمة في تشكيل الهوية والتكيف السيكولوجي، تعود للظروف المحلية التي يتعرض لها المغتربون، ومنها ظروف السكن والإقامة والعمل، وممارسة الشعائر الخاصة بهم وتقاليدهم.

- تفرض صيرورة الهجرة والاغتراب شكلا من أشكال الاضطراب سواء في الأسر المغتربة، أو في النظام الاجتماعي الجديد الذي انغrust فيه عند عدم التأقلم والانسجام.

- الهوية هي السمة الجوهرية العامة لثقافة من الثقافات، لكن هذه السمة ليست ثابتة أو جاهزة أو نهائية، كما يفهمها أو يعرفها البعض أحيانا.

- يختل التوازن والتواصل عندما تكون كلا من الثقافتين متعارضتين على مستوى القيم، مما يؤدي إلى اعتداء أحدهما على المعايير والقيم المحددة من طرف الأخرى، كمثال على ذلك تقييم إحداهما بشكل إيجابي استقلالية المراهقين في مسألة الحرية الجنسية، عكس الأخرى مما يؤدي إلى دخولهما في صراع.

وأصبحت أكثر ارتباطا ببعضها قل احتمال وجود التسامح السياسي، ومن ثمة فقدان روح الحرية اللازمة لقيام المجتمع⁽¹⁴⁾.

4/ الاستنتاجات البحثية:

- تقع الهوية اللغوية والحضارية للمغتربين في فرنسا بين التأثير الإيجابي والاختزال، ولكن لا يتحقق هذا إلا بالتأقلم والتكيف الاجتماعي مع ضرورة الحفاظ على الخصوصية الثقافية واللغوية.

- إن الاندماج أو التجانس الاجتماعي، هو انصهار الجماعات اجتماعيا وثقافيا، بحيث تتوحد الهوية الخاصة والهوية العامة في هوية مشتركة جامعة

- العائلة القوية مسئولة على الحفاظ على الهوية اللغوية والحضارية لأفرادها في مواجهة صعوبات الحياة في المجتمع وتحميمهم من القوى المركزية النافذة وتجد لهم الوظائف والمراكز المهمة. وعلى العكس من ذلك، يفضل أفراد العائلة الضعيفة في مواجهة التحديات وحماية أنفسهم من سيطرة القوى النافذة ويشغلون وظائف ثانوية على الأغلب.

(3) Alem Noureddine. Aspect sociolinguistique et culturel de l'immigration marocaine en France.

(4)- PDF. Ibid. p4

(5)- إسماعيل نوري الربيعي، العرب والاستعمار، ط1، الشارقة، دار الثقافة والإعلام، 2000م، ص. 9-

(6) - شاكرا العيساوي، في تحديث العقل العربي، مجلة الطريق اللبنانية، العدد الأول، السنة الستون، 2001، ص 27.

(7) - Amine Maalouf. les identités meurtrières. éditions grasset. 2004. p23

(8) - Ibid. p25

(9)- محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت، 1999. ص43.

(10)- إبراهيم الحيدري، إعادة إنتاج الهوية، مجلة الثقافة الجديدة (العدد 317)، 2006، ص95.

(11)- المرجع نفسه، ص98.

(12)- عبد العظيم جبر حافظ، في التنشئة السياسية والاجتماعية، دار الهدى، 2009، ص167.

(13) - Linton Ralph. Le fondement culturel de la personnalité. traduit Par. André Léotard Paris. 1968. p67.

(14)- ورد كاسوحة، أزمة الثقافة السياسية عند الشباب العربي، مجلة النهج، العدد (69)، ص181.

- إن الجماعات المغتربة أو الأفراد المهاجرين الذين يصلون إلى بلد جديد ويحملون اتجاهات تتراوح ما بين الحفاظ على ثقافتهم الأصلية وثقافة منشأهم، والإبقاء عليها في المجتمع الجديد وصيرورتهم، تتفاعل هذه الاتجاهات مع درجات القبول الواقعية والمدركة عند المغتربين مع السياسات الرسمية المتعلقة بالهجرة.

- وظيفة العائلة ووظيفة المدرسة، ملزمين أن يتنازلوا عن تعلم ثقافتهم الخاصة لصالح ثقافة أخرى جديدة مع خاصية تعلمهم للغات وعادات أخرى، وهو ما يؤدي إلى إدخال الأسرة في الثقافة الجديدة. أحيانا يمكن لهؤلاء الأطفال أن يكشفوا عن موانع وعوائق في صيرورة التعلم لعدم قدرتهم الحفاظ على التوازن الوظيفي ما بين إكراهات الثقافة الجديدة وثقافتهم الأصلية.

5/ قائمة المصادر والمراجع:

(1)- عبد الرحمن العيسوي، دراسات في علم النفس الاجتماعي، دار المعارف، مصر 1986، ص38.

(2) -علي الجسور، موسوعة علم السياسة، دار مجدلاوي للنشر، عمان، 2004، ص. 384.